

الجامعات

المتقدمون للتعليم الجامعي هذه الأيام أكثر بكثير من أمثالهم في أي زمن مضى. في المملكة المتحدة نحو نصف مليون شخص، والنساء يتابعن مسار التعلم أكثر من الرجال. الجدير بالذكر أن طلب العلم هذا كان قريباً من قلوب المسلمين؛ ذلك لأن القرآن يحثهم على طلب العلم والمعرفة وعلى الملاحظة والتفكر؛ ويعني ذلك أن علوماً عالية كانت تدرّس في المساجد والمستشفيات والمراصد وبيوت العلماء المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي.. علاوة على المدارس.

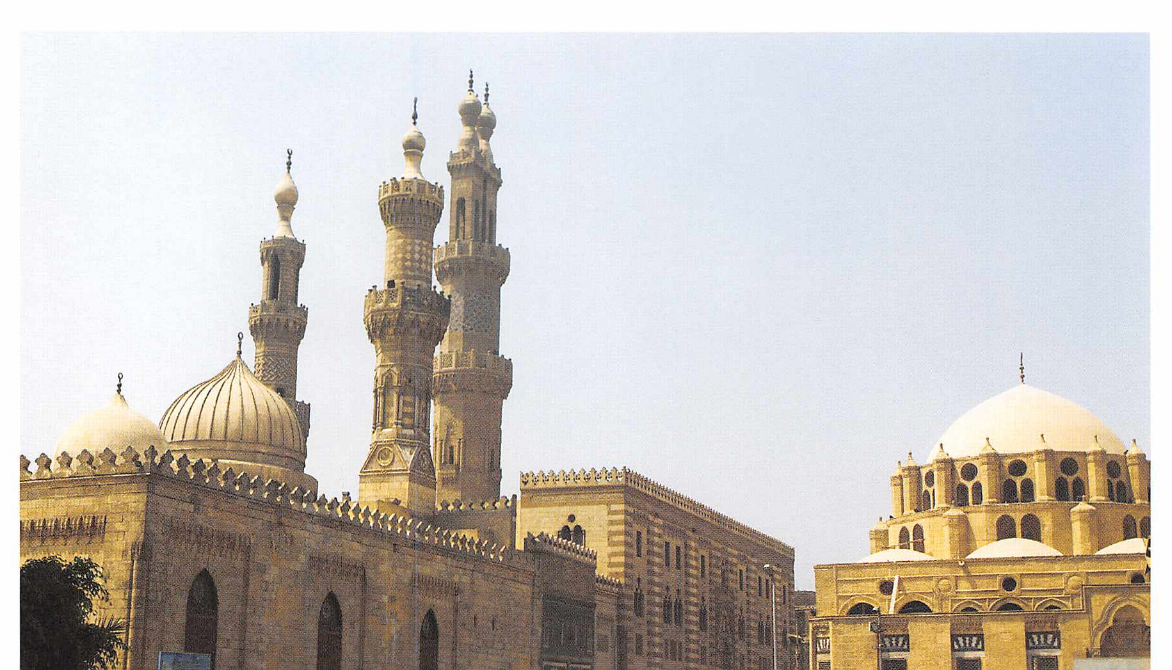
"اطلب العلم من المهد إلى اللحد".

مثل إسلامي

ما أن ينهي المرء التعليم الأولي حتى يبدأ دراسة قواعد اللغة العربية والشعر والمنطق وعلم الأحياء والتاريخ والقانون والدين، وكان إلى جانب ذلك أكاديميات علمية لها رؤساؤها الخاصون بها.

وهناك شيء من التشابك بين التعليم المدرسي والتعليم الجامعي؛ فكلاهما ابتدأ في المسجد.. كما أن كلمة جامعة مؤنث كلمة جامع؛ لذلك كان مكان الدين ومكان التعليم العالي مرتبطين تمام الارتباط. وليس لهذا مثيل في الثقافات أو اللغات الأخرى! وتعد بعض المساجد من أقدم الجامعات في العالم: فما زالت الجامعات التابعة للمساجد بما فيها "القرويين" و"الأزهر"، قائمة حتى اليوم بعد أكثر من ألف سنة من تأسيسها. ويعد الأزهر مركزاً محورياً للتعلم العالي في مصر، منذ جذب زبدة المفكرين، وجاءت شهرته من عراقته وخريجيه اللامعين؛ فابن الهيثم الذي غير تاريخ الفيزياء أقام هناك زمناً طويلاً، وابن خلدون عالم الاجتماع في القرن الرابع عشر، كان مدرساً فيه.

من المجمّعات الجامعية الفخمة في المساجد، مجمّع جامعة القرويين في مدينة فاس بالمغرب. بنت فاطمة الفهري، المرأة التقية العالمة، هذه الجامعة في أثناء حكم



جامع الأزهر في القاهرة، أسس عام 972 م وما زال إلى اليوم إحدى أشهر الجامعات التقليدية في الإسلام



باحة جامع القرويين تبين المحراب وراء النافورة. كانت الباحة تستخدم عادة للصلاة في أمسيات الصيف.

في غرفة التوقيت بجامع القرويين ساعة مائية ما زالت تعمل، وتظهر فيها سلسلة من الطاسات النحاسية وأسطرلاب يدل على الأيام والشهور. وعلى الجدار الأبيض إحدى أقدم أسلاف الساعات الأوروبية. وعلى أرض الغرفة سرير حارس الوقت لينام عليه. وخارج هذه الغرفة ساعة زوالية (مزولة) لا تظهر في هذه الصورة.

الأدارسة عام 859م ؛ فبعد أن ورثت الكثير عن أبيها الثري قررت أن تنفق ميراثها كله على بناء مسجد وجامعة تناسب مجتمع فاس. اشترطت أن تكون مواد البناء كلها من أرض الموقع، وعند البدء بالعمل شرعت بالصوم حتى أنجز البناء الجامعي. لم تكتفِ بتمويل المشروع فحسب لكنها أشرفت على تشييده بنفسها. والجدير بالذكر أن أختها شيدت مسجداً كسائر المساجد بالقرب منه.

أرادت فاطمة الفهري أن تقدم لمجتمع فاس مركزاً للتعليم، فسرعان ما تطور مسجد القرويين، كغيره من المساجد الفخمة، إلى مكان للتعليم الديني والمناظرات العلمية، وتوسّع تدريجياً في الموضوعات التي يتناولها طلابه، وخاصة موضوعات العلوم الطبيعية، فاكتسب شهرة بوصفه أول جامعة في التاريخ.

كانت الجامعة حسنة التجهيز وخصوصاً بالأدوات الفلكية، وكان في غرفة التوقيت أسطرلابات، وساعات، وأدوات أخرى لحساب الزمن.

كان الطلبة يدرسون فيها القرآن وعلوم الدين والقانون والبلاغة وفنون النثر والشعر والكتابة والمنطق والحساب والجغرافيا والطب إلى جانب الفلك. وكان في برنامجها مقررات قواعد اللغة والتاريخ الإسلامي ومبادئ الكيمياء والرياضيات؛ ولذا كان تنوع الموضوعات وجودة تدريسها يجتذب العلماء والطلبة من أنحاء العالم كلها.. فكثر المتقدمون إليها بحيث اضطرت الجامعة لإدخال نظام اختيار صارم، مثلما تفعل جامعات اليوم، وكانت شروط القبول حينذاك تشمل حفظ القرآن كله، وإتقان العربية، وإحاطة حسنة بالمعارف العامة.

لم تكن "الجامعات" التابعة للمساجد تستقبل الطلبة المحليين فحسب، بل يرد إليها طلاب من مختلف أنحاء العالم. وهكذا كانت الجامعات العباسية في بغداد تعلم الطب وعلم الأدوية والهندسة والفلك وغيرها من المواد. استقبلت بغداد طلاباً من الشام وبلاد فارس والهند، كما كان من بين طلبة الأزهر أعداد كبيرة من خارج القاهرة. وقد خُصص للطلبة أجنحة سكنية مجانية تشتمل كل ردهة فيها على مكتبة ومطبخ وحمامات.

لم يكن الطلبة في جامعة القرويين يدفعون رسوماً، بل كانو يمنحون إعانات نقدية للطعام والسكن، كان ذلك بفضل الهبات التي تقدمها الأوقاف وعائلات الأثرياء. وكان الطلبة يقيمون ضمن مبان من طابقين أو ثلاثة يسع كل منها ما بين ستين طالباً ومئة وخمسين طالباً.

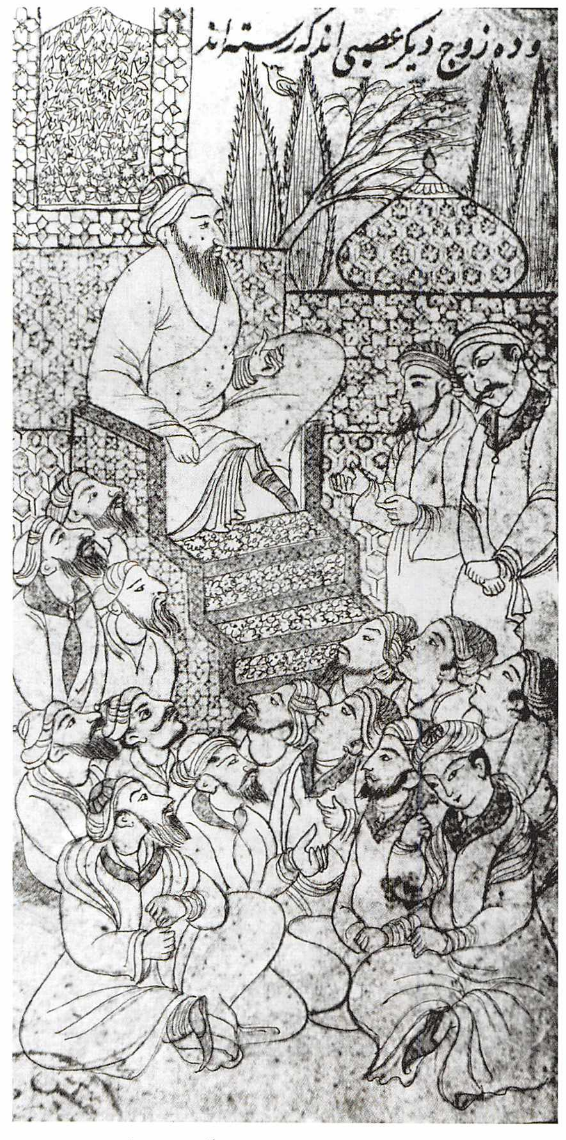
تعد جامعة القرويين في فاس أول جامعة في التاريخ، بنتها عام 841م فاطمة الفهري.

تقع جامعة سانكور (*University of Sankore*) في تمبكتو (*Timbuktu*)، وكانت هي المؤسسة الفكرية لمالي (*Mali*) وغانا (*Ghana*) وصنغاي (*Songhay*).

نشأت الجامعة عن مسجد سانكور الذي أسسه عام *989* العالم الموسوعي عقيب بن محمود بن عمر رئيس قضاة تمبكتو. وكانت الساحة الداخلية للمسجد تساوي تماماً أبعاد الكعبة؛ فقامت سيدة ثرية من مانديكا (*Mandika*) بتمويل هذا المسجد، وجعلت منه مركزاً تعليمياً رائداً. وازدهرت الجامعة حتى بلغ عدد طلبتها في القرن الثاني عشر *25000* طالب، وهو عدد ضخم في مدينة يَعُد سكانها مئة ألف نسمة.

لم يكن للجامعة إدارة مركزية، بل كان فيها كليات عديدة مستقلة يدير كلاً منها رئيس واحد. وكانت المقررات تلقى في الباحات المفتوحة، وتمحورت موضوعاتها حول القرآن والدراسات الإسلامية والقانون والأدب والطب والجراحة والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلسفة واللغات واللسانيات والجغرافيا والتاريخ والفن. ولم تكن تتطلب انتباهاً شديداً أو تفكيراً عميقاً. كما أن الطلبة كانوا يقضون بعض الوقت في تعلم التجارة، وقانون العمل والأخلاق. وكانت حوانيت التجارة هذه تقدم دروساً في العمل والتجارة والزراعة وصيد السمك والإنشاءات وصناعة الأحذية، والخياطة، والملاحة.

كان الحصول على أعلى درجة علمية (تعادل درجة الدكتوراه في هذه الأيام) يستغرق نحو عشر سنين، والجامعات تخرج أساتذة وعلماء على مستوى عالمي، كانوا يعرفون بما يؤلفون من كتب. وكانوا يسمون أطروحة الدكتوراه "رسالة"، وما زالت هذه التسمية مستعملة في كثير من الجامعات العربية. وفي أثناء احتفالات التخرج كان الطلبة يعتمرون عمامة تقليدية ترمز إلى الحكمة والمعرفة، ويرتدون عباءة (رداء جامعي) ترمز إلى السلوك الأخلاقي العالي اقتداءً بالشيخ أو الأستاذ المشرف. هؤلاء الخريجون اشتهروا بسعة معرفتهم ولذا كانت جامعات العالم الإسلامي ترغب بهم أساتذة فيها.



ابن سينا يجلس على كرسي التدريس محاطاً بالطلبة. أخذت هذه الصورة من مخطوطة فارسية من القرن السابع عشر.

وكان في هذه الجامعات، كغيرها من الجامعات المرموقة، مكتبات استثنائية غير عادية، فيها كتب كثيرة، معظمها من هبات شخصية. كان بجامع الزيتونة في تونس، مثلاً، مخطوطات القواعد والمنطق والتجريح والتعديل وأصول البحث وعلم الكون والحساب والهندسة والمعادن والتدريب المهني. وكان في مكتبة عاتكة في القيروان التونسية ترجمة عربية لتاريخ الأمم القديمة الذي ألفه القديس جيروم (St. Jerome) قبيل 420م.



يمكن أن تكون احتفالات التخرج قد بدأت في قرطبة

"كانت الكتب تقدم هدايا، وكان كثير من العلماء يهدون كتبهم إلى مساجد مدنهم لضمان حفظها ولتكون متوافرة للباحثين الذين يرتادون المساجد. وهكذا نمت الجامعات الكبيرة في قرطبة وطليطلة (Toledo) التي كان يؤمها المسلمون والمسيحيون، على حد سواء، ومن كافة أنحاء العالم".

ر. س. ماكينسين (R S Mackensen) مؤرخ أوروبي معاصر في علم المكتبات الإسلامية

التدريس كان في حلقات حيث يجلس الطلبة أمام المدرس على شكل نصف دائرة، ويتاح للأساتذة الضيوف الجلوس إلى جانب المدرس دلالة على الاحترام. وعلى سبيل المثال كانت تعقد في مسجد عمرو جنوبي القاهرة أكثر من أربعين حلقة في بعض الأوقات، وفي الأزهر مئة وعشرون حلقة.

كانت المقررات الدراسية صعبة، والطب بوجه خاص يرهق الطلاب، كما هي الحال في جامعات اليوم، إذ كانت امتحاناته صعبة. ولا يسمح للطالب بممارسة مهنة الطبابة إذا حصل على درجة أدنى من المقبول، ويعد حينئذ غير مؤهل لذلك.

طلبة القانون خضعوا آنذاك لتدريب جامعي، فإذا ما نجحوا عدّهم أستاذهم زملاءه.. ليمكنهم بعدئذ متابعة الدراسات الجامعية التي كانت لمدة غير محدودة قد تصل إلى عشرين سنة قبل أن يستحقوا كرسي الأستاذية. وكان على طالب القانون أن يحصل على رخصة وشهادة تخوله ممارسة المهنة.

من المحتمل أن تكون هذه الشهادات المعروفة "بالإجازات" أصل كلمة "بكالوريوس"، وتعد أدنى شهادة جامعية، وقد ظهر هذا المصطلح أول مرة في نظام الدرجات بجامعة باريس، ووضعه البابا غريغوري التاسع (Pope Gregory IX) في العام 1231. ربما يكون هذا المصطلح عبارة عربية لاتينية استخدمها المسلمون يرجع أصلها إلى مصطلح Behaccalruate "بحق الرواية" ويعني "حق التدريس بتخويل من آخر"، وظلت كلمة "إجازة" مستخدمة في نظام "شهادات الدرجات" ستة قرون. وعند تخرج الطالب يمنح هذه الإجازة وتعني حرفياً أن لحاملها "حق التدريس"، كما تعد البكالوريا الآن مؤهلاً للدراسة الجامعية في أي مكان في العالم.

بهذا النظام أسس المسلمون التعليم العالي: وضعوا نظام امتحانات القبول، والامتحانات النهائية، والشهادات العلمية، وحلقات الدراسة، والمنح الدراسية، وقبلوا طلبة من مختلف البلدان. والواقع أنه كان هناك تطابق ملحوظ مع الإجراءات التدريسية في جامعات اليوم.